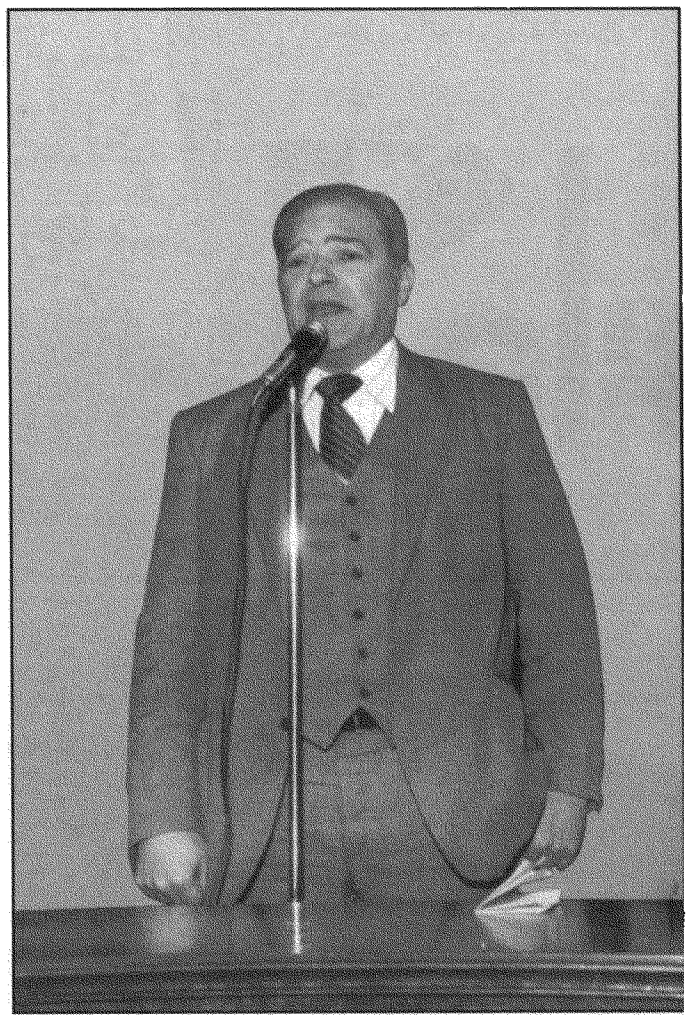

إهداء

عرفت عفيف دمشقية منذ زهاء خمسين عاماً، وظللنا صديقين حميمين طوال هذه المدّة، لم ننقطع عن اللّقاء إلاّ لفترة تَغيُّبِهِ في الكويت حيث عمل مدرّساً ولفترة تغيُّبي في باريس لإعداد الدكتوراه.

ولا أعرف أنّ عفيفاً فارق خاله المرحوم محمد النقّاش الذي أعانه في استكمال دراسته العليا، وخاصة في فرنسا، فكان من وفائه له يلازمه كلّ يوم عدّة ساعات، يكتب ما يمليه عليه ويقرأ له في الكتب والصحف لضعفٍ في نظر النقّاش، لا يتخلّف عنه يوماً حتى وافى النقّاشَ الأجلُ، فسارعتُ أتعاقد معه للعمل في دار الآداب ومجلّة **الآداب**، وكان ذلك منذ عدّة سنوات، لازمني فيها صديقاً وفيّاً ومعاوناً، حتى رحل عن هذه الدنيا.

كان عفيف دمشقية من أكثر الذين عرفتهم حُبّاً للحياة واستبشاراً بها، لا يكاد يُرى إلاّ ضاحكاً، وضحكته مجلجلة يستقبل بها الدنيا مستخفّاً وشعارُه الذي يردّده: «بسيطة، بسيطة»، ينهي بها كلّ نقاش أو كلّ خلاف معه، وكأنّه يعني: القضيّة كلّها ليست «حرزانة»، من غير أن يوحي لحظة بغير الجِدّيّة والرصانة.

كان يعدُّها «بسيطة» إلاّ إذا تعلّق الأمر بصحّة اللّغة! فهناك تثور ثائرته إذا لَحَنَ الكاتب أو أخطأ المتحدّث. فإذا قلت له، على سبيل المزاح، «بسيطة يا دكتور» يغضب ويحمرّ وجهه صارخاً «على الإطلاق!» فأتركه حتى تهدأ نفسُه ويستردّ مَرَحَه وبِشْره...

ومن شدّة غَيْرته على اللّغة، كان يُظنُّ أنّه متزمّت، وهو في الواقع أبعد ما يكون عن التزمُّت: لا يتسامح إلاّ عند الضرورة، ولا يُيسِّر إلاّ إذا أضرّ التعسير بالمعنى وأوحى بالتكلُّف. فالفصاحة هي الأصل، حفاظاً على نقاء اللّغة وتجنيباً إيّاها من الابتذال. وقد علّم عفيف دمشقية طلاّبه في الجامعة الحرص على سلامة اللّغة، كما درّب أجيالاً من مذيعي الراديو والتلفزة على صحّة الكلام وحسن الأداء، وكان يسمّي ذلك «الحفاظ على

ضمير اللّغة».

أما على صعيد الترجمة، من الفرنسية إلى العربية، فلم يكن هناك أكفأ منه ولا أبرع: رشاقة في العبارة ودقّة في اختيار المفردات، وإدراك عميق للمعاني المرادة. وقد ترجم لدار الآداب اثني عشر كتاباً من أهمّها **إنسانية الإسلام** لمارسيل بوازار، ومن أصعبها وأشقّها على الترجمة **نقد العقل السياسي** لريجيس دوبريه. وتُعَدّ ترجمة دمشقية لرواية ميلان كونديرا **خفّة الكائن التي لا تحتمل** من أجمل الترجمات العربية وأرشقها. وكثيراً ما كنت ألجأ إليه للحكم على ترجمة بعض الأدباء الذين كانوا يعرضون علينا أعمالهم المترجمة، فيشير عليّ باعتماد بعضهم، ورفض الآخر. وقد أحلتُ عليه ذات يوم أحد المترجمين المدّعين، فراح يناقشه في ترجمته وذاك يعترض ويتطاوس وهو يأخذه باللّين والمجاملة، حتى ضاق ذرعاً به، فأخذه الغضب وكاد يطرده من مكتبه الذي كان يجاور مكتبي. ولم نَرَ بعد ذلك لهذا المترجم وجهاً!

ولا حاجة بي إلى التنويه، بعد، بما نالته ترجمات عفيف دمشقية لآثار الكاتب اللبناني الفرنسية أمين معلوف الذي كان يشترط على ناشر كتبه اللبناني أن يكون مترجمه إلى العربية عفيف دمشقية دون سواه.

ولا بدّ لي، في هذا السياق، من أن أشيد بالفضل الكبير والخدمات الجلّى التي قدّمها المرحوم عفيف دمشقية لدار الآداب ومجلة **الآداب**، في التحرير والتصحيح وتقويم اللّغة ورفع الأخطاء. وقد كان طوال السنوات التي قضاها في العمل بالمؤسسة مرجعاً لنا، أنا وابني سماح ادريس، بل المرجع اللغويّ الأوّل، ولاسيّما في عملنا المعجميّ الذي كان مصحّحه الرئيسيّ. لقد كنّا نَمْحَضُهُ ثقتنا التامة، وأكاد أقول ثقتنا العمياء.

***

إلى ما قبل عامين تقريباً، كنّا في المؤسسة نشكو من عفيف دمشقية أمراً واحداً: إدمانَه التدخين. وكان لا يكفّ عن السُّعال. وحين كان أحدنا من أفراد المؤسسة – العائلة يحاول أن يَرْدعه، كان يرسم بذراعه حركةً تعني «لا يهمّكم» أو «دعوا الأمور تجري!».

وغالباً ما كانت ابنتي رنا، التي كان عفيف يحبّها كابنته، تدخل غرفة مكتبه لتفتح النافذة من غير أن تقول له شيئاً، فيبتسم ويطفئ سيكارته، ولكن لحظات، لينتظرها، حتى تخرج، فيشعل سيكارة أخرى.

حتى جاءنا يوماً ليعلن أنّه قرّر التوقّف عن التدخين بأمر من الطبيب الذي أنذره بأنّ رئته مُصابة. وحين لاحظ مسحة الحزن على وجوهنا، رفع ذراعه مكوِّراً قبضته قائلاً: «لا يهمّكم! سأقضي عليه!».

***

ظلّ عفيف دمشقيّة زهاء عام ونصف يتردّد على المكتب وهو يحاول أن يُطمئننا برفع قبضته المتحدِّية. ولكنّنا كنّا نلاحظ تدهور صحّته وضعفاً في صوته الذي كان يختفي تدريجياً حتى صار كالهمس.

وكان دائماً على مَرَحِهِ، وكنا نحاول أن نسلّيه وهو في سريره، بعد أن انقطع عن الحضور إلى المكتب، ثم نلتزم الصمت فجأة كأنّنا ندرك أنّنا كنّا نكذب عليه.

وقد قمت أنا ورنا بآخر زيارة له في مطلع تشرين الأوّل الماضي. وحين اقتربت رنا من سريره لتصافحه، جذبها إليه يعانقها ويشتدُّ في معانقتها. ورأيتها تبذل الجهد حتى لا تضعف بين ذراعيه أو تنتحب. وحين تركها ورأى دمعة تتلألأ في عينيها، استدار بوجهه إلى الحائط، من غير أن يرفع قبضته المتحدِّية هذه المرّة.

وخرجت رنا وهي تجهش... كان ذلك العناق، إذن، وداعاً أيُّها الحبيب!

عفيف دمشقية، رحمك اللّه عدد الأحرف التي عانقتها عيناك الجميلتان.

سهيل ادريس